مسابقة الأدب العربي

ديوان علم الدين المحيوى

للدكتور زكى مبارك

غرائب التاريخ الأدبي

إن تاريخ اللغة العربية أعجب من العجب، فقد مر بها عهد قدرت فيه على أن تغزو قلوباً كانت من الجفاء بمكان. ونستطيع أن نحكم بأنه لم يتفق لأية لغة من اللغات الغنية أن تجتذب الغرباء كما اتفق ذلك للغة العربية. وصحة هذا الحكم فى غاية من الوضوح والجلاء، فالإنجليز مثلاً سيطروا على كثير من بقاع الأرض، ومع هذا لم يتيسر النبوغ فى الأدب الإنجليزى فى البيئات الأجنبية لغير آحاد. وكذلك يقال فى الأدب الفرنسى، فالنبوغ فيه مقصور على أهله، ولم ينبغ فيه من الأجانب غير أفراد

وقد قلت مرة إن الفرنسيين لا يعترفون بالأدب البلجيكى ولا يعدونه من الأدب الفرنسى إلا بتحفظ، مع أن البلجيك يتكلمون بلغة الفرنسيس منذ أجيال

فما هى الأسباب التى جعلت لغة العرب لغة محبوبة يتسابق إليها الأجانب؟ وكيف أمكن أن تكون الكثرة من أدباء اللغة العربية ترجع إلى أرومات غير عربية؟

السبب الظاهر هو الإسلام، وهو دين لا يعترف بالعصبية القومية، ولا يقيم لها أى ميزان، فمن حق المسلم فى أى أرض أن يقول إنه من ورثة الرسول، ومن حقه أن يتسامى إلى المنازل العالية ما دام يعتصم بمبادىء الدين الحنيف

ولكنى أعتقد أن هذا السبب الظاهر تؤيده أسباب خفية موصولة بروح اللغة العربية، فهى لغة خلقت للحياة ولم تخلق للموت، بدليل أنها لم تنهزم بانهزام الإمبراطورية الإسلامية، وهى إمبراطورية لم تسيطر على العالم سيطرة حقيقية أكثر من قرنين اثنين، فلو كانت اللغة العربية لم تعش إلا بحراسة الإمبراطورية لوجب أن تزول، ولكنها لم تزل، ولن تزول فللغة العربية خصائص ذاتية تستحق الدرس، فمتى ندرس تلك الخصائص؟ ومتى نعرف بالبراهين القواطع كيف استطاعت الانتصار على الموت، مع أنها تعرضت ألوف المرات للموت؟

هذه قضية تستحق الدرس، فمتى تدرس؟ ومتى نفهم أن هنالك أسراراً لحيوية اللغة العربية غير الأسرار التى تحدث عنها الأسلاف؟

فخر الترك

أكتب هذا بعد ساعات قضيتها مع فخر الترك، وهو علم الدين أيدمر المحيوى، أحد شعراء مصر فى القرن السابع، وهو تركى الأصل بإجماع من تحدثوا عن شعره البليغ، وهم الذين سموه «فخر الترك» لأنه فى نظرهم أشعر من عرفوا من الأتراك فى ذلك الزمان

وقد سكت التاريخ الأدبي عن هذا الشاعر فلم يذكره إلا فى مناسبات قليلة جداً، ولولا عناية «دار الكتب المصرية» بطبع المختار من شعره لظل من المجاهيل

وهل التفت أحد إلى هذا الشاعر بعد أن نشرت مختارات أشعاره فى سنة ١٩٣١؟

الذنب يقع على رأس دار الكتب المصرية، فقد غلت فى ثمن تلك المختارات فجعلته ثلاثة قروش، وبثلاثة قروش نشترى علبة سجائر، وهى أنفع من أى ديوان!

مؤلف مجهول

تعب الأستاذ أحمد نسيم رحمه الله فى البحث عن ترجمة وافية لعلم الدين المحيوى، ثم انتهى إلى أنه شاعر نبغ فى منتصف القرن السابع، وقرر أن ديوانه ضاع، ولم يبق غير مختارات دونها أحد الأدباء المجهولين

وأقول إن فى هذه المختارات قطعة تشهد بأن المحيوى كان شغل نفسه بالتأليف، على نحو ما كان يؤلف عشاق الأدب فى العصور الخوالى، فأين الكتاب الذى ألفه هذا الشاعر البليغ؟

لم يقل أحد إن المحيوى كان مؤلفاً، ولم يلتفت قارئو ديوانه إلى أنه كان من المؤلفين، وأنا قد التفت إلى هذه الناحية عن غير قصد، حين رأيته يقول فى إهداء مجموع له إلى الصاحب محيى الدين محمد بن سعيد:

العبد أيدمر تطلب تحفة ... تكتسى القبول لسيد الأصحاب
فرأى أجل هدية تهدى له ... ذوب النهى ونتائج الألباب
فأجال فى روض القرائح فكره ... ثم انتقى منه لباب لباب

من طيب نادرة ولطف فكاهة   وبديع بادرة وحسن خطاب
وسوائر الأمثال قد وشّحتها   فيه بمعجز سنّةٍ وكتاب

ثم مضى فذكر أن كتابه جمع بين الجد والهزل ، وجمع نوادر الحكماء والبلغاء والخطباء والشعراء والكتّاب ، وجمع بين رقة الحضر وجزالة الأعراب . فأين ذلك الكتاب ؟

نرجو البحث عن هذا الكنز الدفين

طيف البحترى

عند هذا التركى المستعرب أطياف بحترية ، فله قصيدة تضاف إلى ديوان البحترى بدون عناء ، لو كان البحترى زار الروضة ورأى المقياس ، مقياس النيل

هى قصيدة قافية تقع فى نحو مئة بيت ، وهى من الشعر الجزل الرصين ، وفيها لفتات فى غاية من الجمال

الروضة والمقياس

نحن اليوم لا ندرك معنى شعرياً لهاتين الكلمتين ، بسبب طغيان القاهرة على الفسطاط ، وهل نعرف اليوم أين الفسطاط ؟

لقد قضى شعراء مصر مئات من السنين وهم يتحدثون عن الروضة والمقياس ، بفضل ما صنعت هاتان البقعتان فى إذكاء العواطف ، وإيقاد القلوب

كان الحديث عن الروضة والمقياس سُنة شعرية . وأنا رحمت البارودى فى دراسات السنة الماضية فلم أقل إنه تحدث عن غرامياته بالروضة والمقياس حديثاً هو المحاكاة لما قرأ من قصائد الشعراء القدماء

وأين القاهرىّ الذى يسأل عن الروضة والمقياس ، بعد أن انتهت حروب العيون والقلوب حول الروضة والمقياس ؟

هل كانت للبارودى غراميات فى هاتين البقعتين ؟

أنا أستبعد ذلك ، وأرجح أنه بكى واستبكى فوق أطلال الذكريات الموهومة لقدماء الشعراء

يوم التخليق

كان للمصريين يوم فى كل عام يسمونه يوم التخليق ، والتخليق وضع الخَلوق على عمود المقياس ، والخلوق هو أنواع من الطيب أشهرها الزعفران

وكان ملوك مصر فى العهد الإسلامى يحرصون على أن تكون لهم آثار باقية بجانب الروضة والمقياس ، وقد اهتم الملك الصالح نجم الدين أيوب فأقام الأبنية الشامخة فى الروضة « وكانت تسمى جزيرة مصر » وجدد البرج القائم على المقياس ، وانتهز فرصة الفراغ من هذه الأبنية ليحتفل بها فى يوم التخليق

فأين الشاعر الذى يسجل مجد ذلك اليوم المجيد ؟

قصيدة وقصائد

من المؤكد أن ذلك اليوم لم تُنشَد فيه قصيدة واحدة ، وإنما أنشدت فيه قصائد ، فقد كانت مصر تموج بأفواج من الشعراء

وهذا الحديث لا يتسع لأخبار ذلك المهرجان ، فلنكتف بقصيدة التركىّ المستعرب ، أو العربى المستترك ، فما نظن أن له تاريخاً عند الأتراك

هذا الشاعر عربىّ اللغة ، وإن كان تركىّ العِرق ، وقد وصف بالعتيق ، فهل كان مملوكاً لأحد الأمراء ؟

إن تعقبنا هذه القضية فسنزعج التاريخ فى مرقده ، وسنثير حوله مضجرات لا تطاق

المهم أن نسجل أن الشاعر كان معروفاً بالجمال والظَّرف ، وأنه قهر أحد الوافدين من حلب على أن يقول فيه هذه الأبيات :

وكنت أظن الترك تختص أعين   لهم إن رنت بالسحر فيها وأجفان
إلى أن أتانى من بديع قريضهم   قوافٍ هى السحر الحلال وديوان
فأيقنت أن السحر أجمعه لهم   يقر لهم هاروت فيه وسحبان

وعيون الأتراك لها فى الشعر المصرى مكان دل عليه ابن النبيه حين قال :

يصدّ بطرفه التركىّ عنى   صدقتم إن ضيق العين بُخلُ

والذين رأوا المحيوى لم يفتهم النص على أنه كان فتى خفيف الظل ، ولطيف الروح ، ويكفى أنه عاش فى عصر البهاء زهير ، فتحتُ يدى نص صريح بأن البهاء كان نهاية النهايات فى دمامة الوجه وقبح الخلقة ، واضطراب الملامح ، ومعنى هذا أن البهاء ستر دمامته بحلاوة اللسان ، كما صنع الجاحظ فى قديم الزمان !

القصيدة اليتيمة

هى قافية المحيوى فى تهنئة الملك الصالح بالأبنية التى أقامها فى جزيرة الروضة ، والبرج الذى جدده حول المقياس . ويحسن أن نذكّر قراءنا بأن الملك الصالح بقيت له ذكرى هناك ، فأول جسر على النيل فى مشارف الفسطاط اسمه « كوبرى الملك الصالح » فليترحم عليه من يمر فوق ذلك الجسر فى الصباح

أو فى المساء ، وليتذكر كل عابر أن تلك البقعة كانت ملاعب صبابة ومدارج فتون ، بأقوى وأعنف مما كانت حومل والدخول

بدأ الشاعر قصيدته بوصف أيام الربيع وصفاً لو ترجم إلى لغة من لغات الغرب لاعترف الغرب بأن وطن الشعر هو الشرق ، ولننظر كيف يقول علم الدين :

الروض مقتبل الشبيبة مونقٌ ... خضِلٌ يكاد غضارة يتدفقُ
نثر الندى فيه لآلئ عِقدهِ ... فالزهر منه متوج ومنطَّق
وارتاع من مرّ النسيم به ضحًى ... فغدت كمائم زهره تتفتق
وسرى شعاع الشمس فيه فالتقى ... منها ومنه سنا شموس تُشرق
والغصن مياس القوام كأنه ... نشوان يصبح بالنعيم ويُغبق
والطير ينطق معربا عن شجوه ... فيكاد يُفهم عنه ذاك المنطق
غِرداً يغنى للغصون فتنثنى ... طرباً جيوب الظل منه تشقق
والنهر لما راح وهو مسلسل ... لا يستطيع الرقص ظل يصفق
فتملَّ أيام الربيع فإنها ... ريحانة الزمن التى تستنشق

إن الصياغة جيدة إلى أبعد حدود الجودة ، بحيث يُظَن أنها لشاعر من صميم العرب لا من الترك ، والمعانى مألوفة ، فقد طاف حولها كثير من الشعراء ، ولكنها مبتكرة مبتدعة ، لأن إحساس الشاعر بها غاية فى التوقد ، فهو لا ينقل ما قرأ ، وإنما يصور ما أحس . وهنا سر الابتكار والابتداع ، وهل يمكن الامتراء فى أصالة هذا البيت :

والغصن مياس القوام كأنه ... نشوان يُصبح بالنعيم ويُغبق

« والنعيم » هنا هو الخمر ، وهى كلمة قليلة الورود فى الخمريات ، ولكنها لاتنمّ على من ينافس أبا نواس فيقول فى هذا القصيد :

وسلافة باكرتها فى فتية ... من مثلها خلق لهم وتخلق
قد عُتّقت حتى تناهت جدةً ... وكذاك يصفو التبر حين يحرق
شربت كثافتها الدهور فما ترى ... فى الكأس إلا جذوة تتألق
يسعى بها ساق يهيج به الهوى ... ويُرى سبيل العشق من لا يعشق
تتنادم الألحاظ منه على سنا ... خد تكاد العين فيه تغرق
راق العيون غضارة ونضارة ... فهو الجديد ورق فهو معتّق
ودنا كما لمع الحسام المنتضى ... ومشى كما اهتز القضيب المورق
لا غرو أن ثملت معاطفه فما ... ينفك فى فيه الرحيق يصفق
وأظله من فرعه وجبينه ... ليل تألق فيه صبح مشرق
وكأن مقلته تردد لفظة ... لتقولها لكنها لا تنطق
فإذا العيون تجمعت فى وجهه ... فاعلم بأن قلوبها تتفرق

وهذا والله من نفيس الكلام ، كما يعبّر محمد بن داود فى كتاب الزهرة ، على روحه اللطيف ألف تحية وألف سلام !

كان أبو نواس يشترى المعانى من الشعراء ، يشتريها بالدنانير ، ويهدد باغتصابها إن رفض البائع ، وكانت حجته أنه الباقي وأن من يساومهم إلى فناء

فما الذى كان يصنع أبو نواس لو عاصر المحيوى وقرأ هذه الأبيات فى وصف الخمر والتغزل فى الساق ؟

كان يقدم أيامه لا دنانيره ليضيف هذه الأبيات إلى أشعاره فى الخمريات

هذه أبيات نفيسة جداً ، والشرح يفسدها ، فلنتركها بلا شرح ، فهى كمقلة ذلك الساق ، تردد لفظة ولكنها لا تنطق !

ثم ماذا ؟ ثم ينطلق الشاعر فى مدح الملك الصالح بأسلوب يشبهه البحتريُّ المتفرد بإجادة المدائح ، فيقول :

إيه مديحي لا خُطاك قصيرة ... يوم الرهان ولا مجالك ضيق
هذا مقام المُلك حيث تقول ما ... تهوى وتطنب كيف شئت فتصدق
فى حيث لا شرف الصفات يعوز ... فيه ولا باب المدائح مغلق

هذا شاعر كان له ملك يتذوق الشعر فأبدع فى الثناء ، وطاب له أن يقول :

فالله يحمد ثم « أيوب » الذى ... أمن الغنيُّ به وأثرى المملق

والشطر الثانى من هذا البيت يصور المجتمع المصرى فى ذلك الزمان ، فقد كانت الغاية أن يأمن الغنى سطوات الناهبين ، وأن يصل المملق إلى الإثراء

وفى وصف الأبنية يقول المحيوى :

شيدت أبنية تركت حديثها ... مثلاً يغرّب ذكره ويشرق
من كل شاهقة تظل تعجباً ... من هول مطلعها الكواكب تشهق
لبس الرخام ملوناً فكأنه ... روض يفوّفه الربيع المغدِق
واختال فى الذهب الأصيل سقوفه ... فكأنه شفق الأصيل المشرق
يا حسنها والنيل مكتنف بها ... كالسطر مشتملاً عليه المهرق
فكأنها طرف إليه ناظر ... وكأنها جفن عليه محدق
وافاه مصطفقاً عليه موجه ... فكأنما هو للسرور مصفق

obeikandl.com